توظيف الخرافة الشعبية
في شعر الجواهري

الأستاذ الدكتور
سمير الخليل

الدكتورة
رفــل الطائي

الجامعة المستنصرية - كلية الآداب

توظيف الخرافة الشعبية في شعر الجواهري

الأستاذ الدكتور سمير الخليل
الدكتورة رفل الطائـــــي
الجامعة المستنصرية – كلية الآداب

إنّ الموروث الأسطوري والخرافي لأيّة أمة من الأمم يعبّر عن شخصيتها وكيانها ، ويكشف عن مشاعرها وعن كثير من تفاصيل حياتها وحضارتها . وهو يعبّر أيضاً عن ذلك العمق الوجداني للإنسان ، والظروف التي أحاطت به وساهمت في انتاج الفنون والآداب التي تعكس حضارته ، وتنقل حركة الواقع وأثرها في التكوين النفسي والفكري لتلك المجتمعات التي كان لها أسبابها في اعتناق مثل ذلك التراث أسطورياً كان أم شعبياً . إذ " لايمكن أن تبرز قيمته وفاعليته إلاّ مصحوباً بحركة المدّ الحضاري لهذا الشعب أو ذاك"[١] ، لما يحتويه من دلالات اجتماعية أو سياسية أو ثقافية أو دينية ، تدفع بالشاعر – أحياناً تحت ظروف معينة – إلى اللجوء إليه واعتماده نوعاً من الرموز أو الأقنعة التي يحاول من ورائها تثبيت فكرة ما ، أو إيصالها إلى الآخرين بشكل غير مباشر.

ويأتي توظيف الشاعر لمفردات ذلك الموروث من وقائع وأحداث وشخصيات لأهداف وغايات معينة أهمها الإفادة من ثقافة الماضي وظروفه وتوظيفها في وقائع الحاضر ومجرياته ، فضلاً عمّا يجسده من سلوك الإنسان في بيئته المحلية ، ويطرح تصوراته عن العالم بشكل فكاهي ساخرٍ حينا ، أو بشكل جاد يصور تخوفات الإنسان حيناً آخر.

وللخيال أثره البارز جداً في هذا المجال ، وذلك للخصوصية التي يتمتع بها الموروث الأسطوري أو الخرافي في تصوير الواقع وتلونه بألوان الحياة الشعبية من خلال الانخراط في عالم متخيل يتدخل الشاعر في نقل وقائعه أو أثره في جمهور المتلقين لقرب ذلك التراث الشعبي من معارفهم وعلاقته القوية بهم ، إذ أنّه ينقل مشاعر طبقة واسعة جداً منهم.

وتغلب الإشارة إلى ضعف اعتماد كثير من أصحاب الشعر العمودي على المضامين الأسطورية والخرافية في أشعارهم ، لمحدودية ثقافتهم الأدبية التي يتمتعون بها من أجل توظيف ذلك الموروث فنياً في شكل إشارات أو رموز[٢]كما يرى الدكتور علي حداد.

ولعل ذلك يرجع إلى بساطة الثقافة الموسوعية التي زودوا بها وانغلاقهم على الثقافة العربية التراثية ، دينية كانت أم أدبية . فضلاً عن انشغالهم عن ذلك بقضايا المجتمع التي يبغون معالجتها بشكل مباشر وعلى قدر من البساطة والوضوح ، على العكس من رواد الشعر الحر الذين رأوا في الموروث الإنساني بعامة والعربي بخاصة زاداً لهم ، يأخذ عليهم ملكاتهم ، سواء عن طريق اللغة أم الفكر أم الشعور ، ومتنفساً للتعبير عن اختناقاتهم وهمومهم التي فرضتها عليهم ظروف العصر ومشاكله.[١]

وقد تأثر غالبيتهم بآراء (إليوت) حول ضرورة اهتمام الشاعر بتراث أمته والأمم الأخرى . والشاعر عندما يتجه إلى التراث الأسطوري يلجأ " إلى الرموز الأسطورية ، أو الحكاية الأسطورية في شعره لأنه يراها شديدة الصلة بالحاضر ، فذلك لقاء طبيعي ، لأنَّ الأسطورة التي هي فكر وعطاء إنساني كبير ، قابلة للتحول ولأن تلامس الواقع المعاصر"[٢] فالجواهري الذي يعد واحداً من شعراء الكلاسيكية الحديثة التي تعتمد الشعر العمودي كان محدوداً

نسبياً في تعامله مع ذلك النمط الموروث إذا ما قورن بالكم الشعري الهائل الذي انتجه في مراحل عمره الطويل.

وقد اعتمد في ذلك الرجوع إلى بعض الأساطير والخرافات العربية القديمة في إشارات متواضعة لها. إذ لم يوطفها توظيفاً عميقاً كما فعل أصحاب الشعر الحر . ولعله في ذلك يتعصب للثقافة العربية القديمة وحكاياتها مع الإشارات المتواضعة إلى بعض رموز الأمم الأخرى وأساطيرها.

وعلى سبيل المثال فإنّ إشاراته إلى حكايات "ألف ليلة وليلة" وشخصياتها الخرافية لم تتعد الإشارة إلى كونها شاخصاً من شواخص حضارة العرب العريقة في ذلك الوقت ، من دون ولوجها ومحاولة تلمس ما جاء فيها من قصص خرافية اعتمدت الخيال.

لقد ظهر على الجواهري في تأثره بالموروث الأسطوري والخرافي القديم تعامله مع بعض العادات والخرافات الشعبية العربية القديمة التي شاعت منذ الجاهلية ، واستعملها الشعراء الجاهليون ومن جاء بعدهم ، كتطيرهم وتشاؤمهم من طائري "الغراب" و "البوم" أو من سقوط المذنب الذي ينبئ بحدوث شر عظيم ، وهاتان عادتان مازالتا قائمتين حتى يومنا هذا . وقد جمع بينهما الجواهري في بيت واحد للإشارة إلى ما ينتظر العرب من ويل وعذاب سيحلان في البلاد جرّاء استعمارها ، وذلك في قوله[٣] :

تنادتْ بويلٍ في ديارِكِ بومةٌ وأعلنَ نَحْساً في سماكِ مُذَنَّبُ

وكذلك وظَّف صورة (الهامة) ، وهي خرافة سادت قديماً ، تصور طائراً خرافياً يخرج من رأس القتيل يظل ينادي بطلب الثأر له حتى يؤخذ بثأره فيهدأ ويسكن.[٤]

وقد لجأ الجواهري حينما أراد الحديث عن مخلفات الحروب ، وما تتركه من إرث ثقيل على أهلها ، فها هو المحارب الذي قتل في المعركة يجوب خياله ساحة القتال ليصغي إلى "الهامة" التي تطلب ثأره فلا يسمع منها سوى النعيب . جاء ذلك في قصيدته (ألقت مراسيها الخطوب) التي قالها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.[١]

ومشى من "القبر" الرَّهيـ ـبِ خَيَالُ مُحْتَرِبٍ يجوبُ
غَطَّى معالَمهُ شَجَاً وتوحّشٌ ، ودمٌ صبيبُ
أَصغى فَألْهَبَ سَمْعَه من "هامةِ" الجَدَثِ النّعيبِ

إنّ اختيار الجواهري لـ(الهامة) قد أكمل صورة الواقع المأساوي الذي خلفته الحروب ، ليشير بذلك إلى عدم جدوى تلك الحروب ، فمن ذا الذي سيأخذ بثأر تلك الأرواح التي زهقت في المعارك؟

وكذلك أيضاً إشارته إلى وادي (عبقر) وهو وادٍ خرافي أو أسطوري كان الناس في الجاهلية يظنون أنّ الجن والشياطين الذين يلهمون الشعراء ملكة القول يسكنون فيه.[٢]وقد وظفه الجواهري في التعبير عن ألمه وحسرته على شبابه الضائع ، وقد كاد يتعرض إلى الموت وهو يعبر الشارع وقد التقى وجهه بوجه طفل صغير تدفعه أمه بالعربة وهما يعبران الشارع ، فيخاطبه بقوله[٣]:

لم يَعْدُ عامَيْنِ وكانتْ له من ثقةٍ بالنفس أعوامُ
بينا ابنُ ستينَ وفي زَعْمِه من عبقرٍ يأتيه إلهامُ
يَخْتَبِطُ "الشارع" مِنْ حولِه تنهالُ للأخطارِ أكوام

فهو يحاول أن يتوحد مع الماضي بإيمانه بتلك الخرافة التي كانت تجعل للشاعر ارتباطاً مع العالم الآخر فتميزه عن الآخرين بملكته الفريدة.

ويحتل طائر "العنقاء" الأسطوري مكاناً لابأس به لدى الجواهري ، وهو طائر اشتهر بطول عمره وضخامته ، تقول الأسطورة : أنّه يموت محترقاً ويولد مرة اخرى من الرّماد . وقد أفاد الشاعر من هذه الأسطورة في التعبير عن أصالة القائد العربي جمال عبد الناصر وعروبته ، فيقول[٤]:

كُنتَ ابنَ أرضِكَ من صميم ترابِها تُعطي الثمارَ ، ولم تكن عنقاءَ

فهو ابن الأرض العربية من صلب تكوينها وليس طارئاً عليها كغيره الذي شبهه بالعنقاء وأسطورة تكوينها ، وقد وفّق في ذلك التوظيف من دون أن يلجأ إلى ذكر تفصيلات الأسطورة.

وقد أكثر الجواهري من توظيف بعض الكائنات الخرافية الأخرى كـ(السعلاة) ، وذكرها (الغول) ، وهما كائنان خرافيان يتميزان بالضخامة والبشاعة وتعدد الأوجه والأشكال ، وقد نسجت حولهما الحكايات التي تتسم بالرعب والهول.[١]

وقد وظفهما الشاعر في رسم مشاعر الخوف والخشية من المصير المجهول الذي يواجهه ويواجه بلاده . فهو قد استوعب العملية السياسية إلى الحدّ الذي بات يفكر فيه بالأبعاد السياسية وغيرها لما حصل ويحصل.

فعلى الرغم من فرحته بما حصل عليه العمال من حقوق وامتيازات في بلاده ، فهو لايزال ينصحهم ويحذرهم من الآتي وعليهم أن لايمنحوا الآخرين ثقة مطلقة.

وحينما يريد أن يعبّر عن ذلك فإنّه يلجأ إلى المزج بين خرافية السعالي وصورة الشياطين التي جاء ذكرها في القرآن الكريم في صفة جهنم ، في قوله تعالى : ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[٢]، وقد جاء ذلك في قصيدته (في عيد العمال) عام ١٩٦٠م ، إذ يقول موجهاً خطابه إلى العمال [٣]

فـــإنَّ وراءكـــم غايـــــــة ســـتُطوى مفـــاوزُ منهـــا وبيـــدُ
كـــأنَّ رؤوسَ الســـعالي بهـــا وهـــامَ الشـــياطينِ طَلْـــعٌ نضـــيد

إنّ حرص الجواهري على مصلحة تلك الطبقة قد خلق فيه نوعاً من الشك والقلق إزاء المصير الذي ينتظرهم وإن كانت دلالات النصر تشير إلى غير ذلك.

إنّ إفادة الشاعر من صورة (السعالي) وربطها بصورة الشياطين – كما وصفها القرآن – قد أعطت دلالة واضحة إلى كثرة المصاعب والمشاق التي تنتظر العمال مشبهاً إياها بـ(رؤوس السعالي وهام الشياطين) التي تنتظم – لكثرتها – كـ(طلع نضيد) ، على الرغم من أنّه قد عكس الصورة التي وردت في القرآن الكريم أصلاً.

فقد تعامل الجواهري – في الصورة السابقة – مع الموروث الخرافي بفنية رائعة ، ورشاقة في التوظيف تعكس قدرته وتمكنه في هذا الجانب.

أمّا توظيفه لـ(الغول) – الذي يسكن عادة في الأماكن المقفرة – فإنّه يستغل ذلك في نقل تجربة الغربة إلينا ، والحديث عن معاناته الطويلة في مغتربه بـ(جيكوسلوفاكيا) في عامه الأول . وقد كانت الكوابيس تقضّ مضجعه ، وألم الشوق والحنين يرسم في مخيلته صوراً مرعبة ، يتخيل فيها نفسه في قفرٍ موحشٍ يعجّ بالأغوال والوحوش . ومن فرط فزعه وتأثره فإنّه يستيقظ من ذلك الكابوس ليلمس جدران غرفته الداكنة ، فيطمأن إلى أنّه كان يحلم ، وليس ما رآه سوى كابوس لاغير.

يقول في ذلك [1]:

وألمِس الجُدُرَ الدكناءَ تخبـــــرني أنْ لستُ في مَهْمه بالغِيلِ مسكـون.
وأركـبُ الهـوْل في ريعـانِ مأمَنـة حُـبُّ الحيـاةِ بحـبِّ المـوتِ يُغرينـي
مـا إنْ أُبـالي أصـاباً درَّ أم عسـلاً مـريٌ أراهُ علـى العـلاتِ يُرضينـي
غُـولاً تسـنَّمتُ لم أسـأل أكارعَـه إلى الهُوَىأمْ على الواحاتِ ترميني

فلحبّ الحياة المتأصل فيه فإنّه يقرر العودة لمواصلة الحياة غير آبهٍ لشئٍ ، مصرحاً بأنّه على استعداد لمواجهة ذلك (الغول) – ولعله أصبح يمثل عنده الزمان المتسلط الذي يفزعه ويحاول سلب سعادته وطمأنينته – مهما بلغت قوته ، ومهما كان المصير الذي ينتظره ، وذلك في قوله :

غـولاً تسـنّمتُ لم اسـأل أكارَعـه إلى الهُوَى أمْ على الواحاتِ ترميني

إنّ الاضطراب النفسي الشديد الذي عاناه الجواهري في تلك التجربة قد أسهم في رسم تلك الصور التي اعتمد في جانب مهم منها على الموروث الخرافي ، وقد جاءت تلك الصور على جانب من الفنية والعمق والقدرة لدى الشاعر على مزج الثقافة الخرافية مع الواقع بأسلوب متميز لرسم معاناته ، وكل ذلك جاء باستثمار صفة ذلك الكائن الخرافي الرهيب (الغول) وكذلك شكله ، بعد أن ملأ الأزمان بالرعب والخوف والقوة الخارقة ، كما تصوره الخرافة ذاتها.

إنّ إشارات الجواهري المنبعثة من الحكايات الخرافية جاءت – في أغلبها – لتصوّر الحالات النفسية والمواقف العصيبة التي مرّ بها في غربته . وكذلك التي مرّت به بلاده معطياً الأعداء تلك الملامح المرعبة ، ولكنه في بعض الأحيان يلجأ إلى تلك الرموز ليوظّفها في تصوير شوقه وحنينه لبلاده كما يتضح في قوله[1] :

ومُستدقُّ صخورٍ من مآبرِها رؤىً تظلُّ على الحالينِ تُشجيني
من أنمل الغيد في حسن تتمّمه فإنْ تَعَرَّتْ فمن أنياب تنين

فهو يوظف حيوان (التنين) – وهو حيوان خرافي بحري ضخم عرفته الحضارات الأخرى – ويستعين به في إكمال صورته التي تحدّث بها عن حنينه إلى الوطن وذكرياته عنه ، وفي أثناء وصفه للصخور التي يراها في النهر.

وكذلك توظيفه لبعض مظاهر الموروث الخرافي – وإن كان مقتضباً – الذي جاء ذكره في حكايات (ألف ليلة وليلة) ، كـ(القمقم ، والعفاريت ، والمارد ، وغيرها) ، كما ورد في قوله[٢] :

يادجلةَ الخيرِ : كم من كنزِ موهبة لديك في "القُمقُم" المسحورِ مخزون
لعلَّ تلك العفاريتَ التي احتُجِزَتْ مُحَمَّلاتٌ على أكتاف "دُلفين"

فقد وظّف صورة (القمقم المسحور) الذي يضم في داخله الأشياء ، في إشارة إلى تواري واختباء المواهب الكثيرة التي يتمتع بها كثير من أبناء بلده وراء الظروف القاهرة ، والواقع الاجتماعي والسياسي المزري الذي ترزح تحته بلاده ، في حالة مميزة للربط بين الصورتين.

إنّ نجاحه في توظيف تلك الصورة الخرافية وغيرها يعود إلى هضمه الموروث وتمثله له بشكل فني موح يعكس مدى ثقافته التراثية وإخضاعها لقدرته وإبداعه الفنيين ، على الرغم من قلة ذلك التوظيف ومحدوديته أو اقتصاره – بشكل تقريبي – على الثقافة العربية وموروثها الأسطوري أو الخرافي.

ولم يعرف عن الشاعر الجواهري توظيفه لكثير من الأساطير المعروفة التي اعتمدها غيره من شعراء الشعر الحر كأسطورة أوديب ، وسيزيف ،

وبرميثوس ، وتموز ، وعشتار ، وايزيس ، وغيرها. والتي قد يعود السبب في كثرة لجوء أولئك الشعراء إليها وتوظيفها في شعرهم إلى اتخاذها قناعاً ورمزاً يخفون وراءه كثيراً من مشاعرهم الغاضبة وآرائهم الجريئة.

فالجواهري قد عُرف بجرأته وصراحته وشجاعته في مواجهة الطغاة والمنافقين والمستغلين بغض النظر عن النتائج القاسية التي سوف يتعرض لها ، ولعل هذا واحد من الأسباب وراء قلة تعامله مع الموروث الخرافي والأسطوري فضلاً عن أسباب أخرى كانت وراء ذلك.

هوامش البحث

(١) عالمية التعبير الشعبي ، نبيلة إبراهيم ، مجلة فصول ، مج٣ ، ع٤ ، ١٩٨٣ : ٢٣.
(٢) ينظر : أثر التراث في الشعر العربي الحديث : ٨٦.
(١) ينظر : التراث والحداثة في الشعر العراقي الحديث ١٩٥٠ – ١٩٨٠ : ٧٨.
(٢) دير الملاك ، د. محسن أطيمش : ١٣٥.
(٣) ديوانه : ٢/٢١٧.
(٤) ينظر : الاسطورة في الشعر العربي ، يوسف حلاوي : ٨٥.
(١) ديوانه : ٣ / ١١٥.
(٢) ينظر : الأسطورة في الشعر العربي : ٧٦.
(٣) ديوانه : ٦ / ١٣٧ ، وكذلك ينظر : ٤ / ٢٥٥ ، ٧ / ٦١ ، ٧ /١٠١.
(٤) ديوانه : ٦ / ٥٣ ، وكذلك ينظر : ٤ / ١٥.
(١) ينظر : الأسطورة في الشعر العربي : ٨٣.
(٢) سورة الصافات ٦٥.
(٣) ديوانه ٥ / ٢١ ، وكذلك ينظر : ٥ / ١٠٦ ، ٣ / ٣٦٩.
(١) ديوانه ٥/ ٩٢ ، وكذلك ينظر : ٣ / ٢٤٣ ، ٥ / ١٨١ ، ٤ / ١٠٠ ، ٧ / ٧٧ ، ٧ / ١١٣.
(١) ديوانه : ٥ / ١٠٥ ، وكذلك ينظر : ١ / ٢٣٢ ، ٤ / ٣٤٩.
(٢) المصدر السابق : ٥ / ٨٩.

قائمة المصادر والمراجع

١- أثر التراث في الشعر العربي الحديث ، علي حداد ، دار الشؤون الثقافية – بغداد ١٩٨٦.
٢- الاسطورة في الشعر العربي ، يوسف حلاوي ، دار الحداثة – بيروت (د.ت).
٣- التراث والحداثة في الشعر العراقي الحديث ١٩٥٠ – ١٩٨٠ ، عبد المطلب محمود ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٩٧.
٤- الجواهري شاعر العربية ، عبد الكريم الدجيلي ، مطبعة الآداب – النجف الأشرف ١٩٧٢.
٥- دير الملاك ، دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العربي المعاصر ، د. محسن أطيمش ، وزارة الثقافة والاعلام – بغداد ١٩٨٢.
٦- ديوان الجواهري (سبعة أجزاء) ، د. مهدي المخزومي وآخرون ، مطبعة الأديب البغدادية – بغداد ١٩٧٣.
٧- الشعر العربي الحديث ، رموزه وأساطيره الشخصية ، د. علي جعفر العلاق ، دار الحرية – بغداد ١٩٨٦.
٨- عالمية التعبير الشعبي ، نبيلة إبراهيم ، مجلة فصول ، المجلد ٣ ، العدد ٤ ، ١٩٨٣ .